



التوافقات السياسية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى أوجدت سوريا بالتركيبة المعروفة: حاضرatan مدنیتان صغیرتان في دمشق وحلب، ومحیط شاسع وشبه فارغ ذو طبیعة عشائریة أو قبليّة، مع تنوع عرقي وطوائفي. لم تلق فرنسا الانتدابية صعوبةً كبری في السيطرة الكاملة على هذه التركيبة. وقد تكون ظروف الحرب العالمية الثانية، وكذا مزاج أمیرکا المناوی للاستعمار المباشر، ورغبة بريطانيا في التحكم بالمنطقة عن بُعد، ومحاولتها مد الید إلى الإرث الفرنسي، عجلت بخروج فرنسا الكامل، ولا يمكن تجاهل الحضور السوفییتی الذي فرض نفسه، ليس بقوّة الأیدیولوجیا التي يمتلكها، ولكن بقوّة نتائج الحرب العالمية التي توجّهت واحداً من المنتصرين.

وقد الوطّنیون السوريون بعد الاستقلال أنفسهم يُحکمون مباشرة من دون أي مستشارین فرنسيین، وعليهم أن يقرّروا السياسات الداخلية والخارجية، مع وجود مشكلات كبری مع دول الجوار السوري، أو التي تقع ضمن مداه الاستراتيجي المؤثر، العراق والسعودیة ومصر، ومن خلفها كل من فرنسا وبريطانيا وأميرکا والاتحاد السوفییتی.

كتب الصحافي البريطاني، باتريك سیل، عن فترة ما بعد الاستقلال في سوريا، وصولاً إلى لحظة الوحدة مع مصر. استنتاج أن الجغرافیا التي أطلق عليها سوريا لم تكن میداناً للصراع بين القوى المحلیة والعالمیة، بل كانت موضوعاً لهذا الصراع، حاولت أطراف الصراع الهيمنة على كل الجغرافیا السورية، أو السيطرة على بعضها، واستخدمت السلاح والمال وزرع العمالء، واستنذفت سوريا خلال تلك السنوات الائتني عشرة، وصولاً إلى الوحدة مع مصر. عزّز هذا الاستنزاف حالة الضياع في البحث عن الهوية الوطنية، وغموض تعریفها الاجتماعي، والاستسلام لصراعاتٍ داخلیةٍ ضیقةٍ، من دون مردود وطني، وبقیمةٍ تدمیریةٍ مرتفعة، ساهمت في توقف العمل المؤسسی، وتقویضه لصالح الاستثمار في قوى ذات انتماء وطني شکلی، وسلوکیاتٍ تخضع لتلك الصراعات، أدت إلى رفع فوائد التنمية. كان استنتاج سیل صحيحاً، حتى "حادثة" الوحدة

مع مصر ذاتها كانت لصالح واحد من تلك الصراعات التي استطاعت أن تتفوق على زميلاتها في المنطقة، واستنتاج سيل يقول إن التصميم الجغرافي (سورية) الذي أشرفت عليه الدول المنتدية مُعدّ خصيصاً ليكون المائدة بمكوناتها الشهية. حالياً، لم يختلف الموضوع الأساسي، وهو سورية المُعرَّضة لصراعٍ لم تغير قوانينه، وهي بذل المال والسلاح بغرض الهيمنة أو الاستيلاء، مع اختلاف بعض اللاعبين، من دون أن تغير قواعد اللعب. هنا حالياً إيران وروسيا وإسرائيل، وهؤلاء مجموعة ذات طبيعة خاصة، شكلوا ما يشبه التحالف من تحت الطاولة في وقت الحرب، وكان لوقوفهم معاً دورٌ فيما وصلت إليه المعركة الحالية، وقد يكون حاسماً في الفترة المقبلة. ليس بالضرورة أن يصمد هذا التحالف الخفي إلى الأبد، فكل طرفٍ تحرّكه دوافع مختلفة ومتناقضه أحياناً، خصوصاً في وجود لاعبين آخرين، كالسعودية والولايات المتحدة، يقفون متحفّزين على مقرّبة من الأحداث، ولا يعني قرار دونالد ترامب سحب القوات الأميركيّة أنّ سورية أصبحت خارج دائرة اهتمامه، يمكن أن نضيف اللاعب المصري، وهو لاعب قديم وجديد، يحاول حالياً إعادة "سورية النظام" إلى جامعة الدول العربية، بمعنى كسب مزيد من الحلفاء والتابعين. ويُضاف إلى قائمة المتصارعين فرنسا بوصفها الوصي الانتدابي القديم، وهي الآن بقيادة إيمانويل ماكرون الذي يقدم، في الآونة الأخيرة، طروحات مختلفة عما يقدمه شريكه ترامب، بما يشير إلى رغبة ماكرون في وجود محسوس على الأرض، يضمن له حضوراً عند تقسيم الأسلاب.

تجعل هذه الوضعية السياسية سورية محطاً للصراع، من دون أن يتمكّن الداخل السوري، بمكوناته جمّيعها، من استثمار الصراع لصالحه. وعلى العكس، شكل في الغالب وقوداً يغذّي الصراع، ويؤجّج عدم الاستقرار والاستقطاب متعدد الرؤوس، وهو الأمر الذي ينتج وكلاء، ولا ينتج ساسة، وينتج عملاء، ولا يقدم وطنيين، ويُساهم إلى حدٍ كبير في تعزيز الانقسام.

المصادر:

العربي الجديد